

التكيف والمرونة في مواجهة الكوارث والأزمات

"نظرة على المفاهيم وتطورها"

يسري مصطفى

تتناول هذه الورقة التعريفية عددًا من المفاهيم الأساسية ذات الصلة باستراتيجيات إدارة الكوارث والأزمات في الوقت الراهن. والمفاهيم المختارة ليست مفاهيمًا تقنية، بل يمكن أن نسميها إطارية؛ إذ تُستخدَم كإطار لوضع استراتيجيات وخطط عمل. فإلى جانب مفهومَي الكوارث والأزمات، تُستعرض ثلاثة مفاهيم أساسية، وهي المؤثرات والضغوط، التكيف، المرونة. وقد انتشرت هذه المفاهيم على نطاقٍ واسعٍ في الأوساط الأكاديمية والإعلامية والسياسية وتلك المعنية بالجوانب السلوكية والنفسية والبيئية والتنموية. وتلقي هذه المساهمة الضوء على مسار تشكُّل هذه المفاهيم وصولًا إلى ما تعنيه الآن، مع بيان ترابطها؛ إذ باتت تشكل في مجملها منظومةً إطاريةً متكاملة.

أولاً: الكوارث والأزمات

لا شك أن تاريخ كثيرٍ من الظواهر والأحداث التي نسميها "كوارث طبيعية" قد بدأ قبل ظهور البشر على سطح الكرة الأرضية بملايين السنين. فمفهوم الكوارث، كما الأزمات، لا يرتبط بالظواهر في حد ذاتها -سواء الزلازل أو البراكين، أو الفيضانات أو العواصف أو غيرها- وإنما بتأثير هذه الظواهر على البشر على وجه التحديد. فالكوارث ليست كذلك بذاتها، بل بسبب وجود الطرف المتأثر بها، والذي يسمُّها أو يستوعبها بوصفها كوارث أو أزمات. وحتى الوعي بالكوارث الطبيعية واستيعابها اختلف عبر التاريخ، فالمجتمعات البدائية كان لها نظامها الخاص في فهم الكوارث والتعامل معها، بوصفها جزءًا من نظام الطبيعة. وكما يقول عالم الأنثروبولوجي الشهير مالمينوفسكي في كتابه "الأسطورة في علم النفس البدائي": "يستخدم البدائيون العلم للتحكم في العالم المادي. وعندما لا يُجدي العلم، يتحولون إلى استخدام السحر. وعندما لا يُجدي استخدام السحر، يتجه البدائيون إلى الأسطورة، ولكن ليس لإحكام السيطرة على العالم... بل العكس، للتوفيق بين أنفسهم وبين سمات في العالم لا يمكن التحكم فيها، مثل الكوارث الطبيعية، والأمراض، وكبر السن، والموت..."¹.

ومن الناحية اللغوية، فإن منشأ الألفاظ المعبرة عن الكوارث ارتبط بتأثيرها، فهي ألفاظ تعبر عن التأثير وليس الظاهرة. فمثلاً من بين معاني الفعل "كرث" في لسان العرب اشتداد الأمر: فنقرأ "كَرَّثَهُ الْأَمْرُ يَكْرِثُهُ وَيَكْرِثُهُ كَرْثًا، وَأَكْرَثَهُ: ساء واشتدَّ عليه، وَبَلَغَ مِنْهُ الْمَشَقَّةُ". ومع ذلك فقد لا نجد لفظ "كارثة" في مفردات القاموس

¹ روبرت إيه سيجال، الأسطورة، مقدمة قصيرة جداً، ترجمة محمد سعد طنطاوي، مؤسسة هنداوي، 2017، ص 37.

العربي القديم بقدر ما يُعبّر عن الأحداث الجسام بكلمات مثل "مصيبية، فاجعة، نازلة، نكبة، محنة، شدة... وغيرها". وهي، في مجملها، كلمات تعبر عما يشعر به الإنسان نتيجة تعرضه كفراد أو جماعة لمكروه. وهذا ربما ينطبق على معظم الثقافات، لأن المعنى الاصطلاحي لألفاظ الكوارث، الأزمات والمخاطر والضغط... وغيرها، وليد العصر الحديث ونتاج تطور العلوم الحديثة التي قدمت تفسيراتٍ علميةً للظواهر الطبيعية والإنسانية.

وكما تشير الدراسات، فإن الاستخدام الأقدم لمفهوم الكوارث، والذي لا يزال مقبولاً في بعض المجتمعات، يشير إلى "أن الكوارث قضاء وقدر"، وأنها تحدث "كعقاب إلهي على ذنوب البشر وتقصيرهم". وقد وجدت دراسة حديثة أن مفهوم الكوارث كقضاء وقدر لا يزال سائداً في جميع أنحاء العالم، ويتعزز هذا الاعتقاد بعد وقوع كارثة طبيعية كبرى. وتشجع هذه النظرة المتشائمة على قبول العواقب السلبية لمثل هذا الحدث (أو الأحداث) كجزء من مصير الإنسان، وتقتصر على التخفيف من آثار الكارثة يتجاوز القدرة البشرية. وقد يكون هذا الموقف المتشائم أحد أسباب ضعف الاستعداد للكوارث واعتماد تخطيط أفضل لاستخدام الأراضي وتدابير التخفيف من آثار الكوارث في أجزاء كثيرة من العالم. ومع ذلك، تجدر الإشارة إلى أن مجتمع إدارة مخاطر الكوارث قد ابتعد عن هذه النظرية المتعلقة بالكوارث منذ القرن الثامن عشر... وقد أسهم التقدم في التفكير والمعرفة العلمية بعد عصر النهضة بتغيير مفهوم الكوارث من النموذج الخارق للطبيعة إلى الحقائق الفيزيائية الطبيعية. ولعل زلزال لشبونة* عام ١٧٥٥ كان أول كارثة طبيعية شكّلت وجهة نظر الظواهر الطبيعية والجيوفيزيائية كعوامل مسؤولة عن الكوارث الطبيعية".²

أما مسار وضع أسس منهجية ومؤسسية لإدارة الكوارث والأزمات فقد جاء لاحقاً في منتصف القرن العشرين، وكما تشير دراسة متخصصة فقد شهدت فترة معينة من التاريخ الحديث أكبر حركة عامة نحو حماية المواطنين مركزياً، وهي فترة تشكيل الدفاع المدني. وفي السياق نفسه، ارتقت وحدات الدفاع المدني بمرور الوقت لتصبح منظمات أكثر شمولية لإدارة الكوارث. بالإضافة إلى ذلك، وُضعت أطر قانونية لدعم هذه

* زلزال لشبونة عام 1755 ويسمى أيضاً "زلزال لشبونة الكبير" وقع في 1 نوفمبر 1755، يوم عطلة عيد جميع القديسين، في 9:40 صباحاً. وهو من أكثر الزلازل فتكاً وتدميراً في التاريخ. قتل بين 60,000 و 100,000 إنسان (رغم أن العدد الدقيق غير مؤكد). الزلزال أعقبه تسونامي وحرائق، مما أدى إلى تدمير شبه كامل لمدينة لشبونة والدار البيضاء.

https://www.wikiwand.com/ar/articles/%D8%B2%D9%84%D8%B2%D8%A7%D9%84_%D9%84%D8%B4%D8%A8%D9%88%D9%86%D8%A9_1755

² Chaudhary, M.T.; Piracha, A. Natural Disasters—Origins, Impacts, Management. Encyclopedia 2021, 1, 1101–1131. <https://doi.org/10.3390/encyclopedia1040084>

المنظمات، ووضعت أسس الإدارة الحديثة للكوارث.³ وقد بدأ الاهتمام الأكاديمي بدراسة إدارة الأزمات مع بداية الستينيات من القرن العشرين ورافق هذا ظهور أزمات كبرى واجهت المجتمع؛ إذ تصاعدت أزمات الصراعات الدولية والحرب الباردة... ثم أخذ الاهتمام بدراسة المصطلح وينتقل من الإطار السياسي إلى الاجتماعي ثم الاقتصادي والإداري، فظهرت محاولات بحثية ودراسات لوضع تعريفات لمفهوم إدارة الأزمات...⁴. وخلال عقد الستينيات أصبحت الكوارث الطبيعية موضع اهتمام المجتمع الدولي؛ إذ اتخذت الأمم المتحدة تدابير جديدة بشأن الكوارث الشديدة وحشد الجهود لمواجهتها. ففي نهاية الثمانينيات أقرت الجمعية العامة للأمم المتحدة العقد الدولي للحد من الكوارث الطبيعية 1990-1999. ومن هنا بات الاهتمام بالكوارث مسألة كونية، وذلك انطلاقاً من إدراك أن تأثيرات بعض الكوارث تتجاوز الحدود القومية في ظل تزايد العولمة والحركة، ولعل المثال الأبرز على ذلك هو كوفيد 19، ذلك الوباء الذي كان كارثة كونية بامتياز، وكونيته ليست بسبب تأثيراته المباشرة، بل أيضاً بسبب التدابير التي اتخذت وكان لها تأثيرات كارثية على قطاعات واسعة في مختلف أرجاء العالم.

ثانياً: المؤثرات والضغوط

في ضوء ما سبق يتضح أن الكوارث والأزمات لا تسبب ضغوطاً بذاتها أو لذاتها، وإنما لوجود طرفٍ يستشعر أو يتأثر بها فتأخذ سماتها ككوارث أو أزمات؛ فالعلاقة بين المؤثر (الكارثة أو الأزمة) والمتأثر (الفرد أو الكائن الحي أو الجماعة أو المجتمع بشكل عام) تقاس من منظور العلاقة بين التأثير والقدرة على الاستجابة، أو ما يعرف بثنائية "الفعل ورد الفعل"، وهو ما نسميه الضغوط. وبالحديث عن الاستجابة كقدرة فقد ترافق ذلك مع الاهتمام بمفهوم الهشاشة، سواء على مستوى الفرد أو الأنظمة الاجتماعية والسياسية. وقد أصبح مفهوم الضغوط مركزياً في حياتنا المعاصرة؛ فنحن نتحدث كثيراً عن الضغوط التي تحاصرنا من كل حدبٍ وصوبٍ وحتى من داخلنا، فهي جزء لا يتجزأ من تفاصيل الحياة، إن لم تكن تشكل في جانب كبير منها تفاصيل الحياة ذاتها. والأمر لا يتعلق فقط بمصادر الضغوط التقليدية الاقتصادية والاجتماعية، ولكن بتفاصيل أخرى روتينية ويومية كتعاملاتنا، وأشكال أجسادنا، وما نأكل ونشرب، والسير في الشارع، وتصفح وسائل التواصل الاجتماعي، وغيرها. على أي حال لا أحد منا مهما كان وضعه لا يشكو من الضغوط، وليس بمنأى عنها.

³ Rajabi E, Bazayr J, Delshad V, Khankeh HR. The evolution of disaster riskmanagement: Historical approach. DisasterMed Public Health Prep. doi: <https://doi.org/10.1017/dmp.2021.194>.

⁴ الموسوعة السياسية -encyclopedia.org/dictionary <https://political>

في هذا السياق، تجدر الإشارة إلى ثلاثة مفاهيم على صلة بموضوع الضغوط، وهى ضغط Pressure، وإجهاد Stress، وانفعال Strain. وهذه المصطلحات وُجِدَتْ أساسًا في مجال الفيزياء ثم انتقلت إلى علم النفس والتحليل النفسي. وربما يكون التعريف في مجال الفيزياء أيسر حيث ترتبط الضغوط بالحالة المادية الفيزيائية بين مؤثِّر ومستقبلٍ، وهى أمورٌ قابلةٌ للقياس، وحتى التعميم وفق قياساتٍ وقوانين محدَّدة، أما في المجال النفسي، فالأمور تبدو أكثر تعقيدًا نظرًا لنوعية الضغوط من ناحية، وطبيعة تأثيرها على الإنسان الذي هو جسد ونفس وإدراك، وبالتالي فإن قوة الضغط قد تختلف حسب طرق الاستجابة التي تخضع لعوامل متعددة حسب السياق والتجربة وطبيعة إدراك الشخص وتقديره للأحداث والمواقف المؤثرة.

وفيما يتعلق بتعريف هذه المفاهيم، فإن المجالات العلمية تقدم لنا تعريفات تتشابه ولكن يمكن أن نجد بعض الاختلافات كذلك. وإذا انطلقنا من مجال الفيزياء بوصفه المجال الأول الذي أنشأ هذه المفاهيم، فإن مفهوم الإجهاد Stress يعنى "القوة المؤثرة على وحدة المساحات من جسم جامد"، والضغط Pressure هو "إجهاد يؤثر في جميع الاتجاهات". أما الانفعال Strain فهو نتيجة هذا المؤثر الضاغط؛ إذ يعنى "تغير نسبي يحدث في أبعاد الجسم نتيجة وقوعه تحت تأثير الإجهاد". وثمة علاقة بين الإجهاد والانفعال تعرف بمنحنى الإجهاد والانفعال Stress-strain curve عبارة عن "رسم بياني يوضح تغير الانفعال في جسم مع تغير الإجهاد المؤثر فيه". وبالتالي فإن المعادلة الفيزيائية تتمثل في وجود مؤثر (ضاغط)، وجسم واقع تحت تأثير الضغط (مضغوط أو منفعل)، ووصف لأبعاد التأثير.⁵ وهذا أيضًا ما ينطبق على الضغوط بالمعنى النفسي، فدائمًا ثمة تأثير واستجابة، أو فعل ورد فعل.

ولكن ما نلاحظه هو أن مفهوم "الضغط"، في عديد من المصادر العربية، يأتي كترجمة لكلمتي Stress و Pressure. فعلى سبيل المثال تعرف موسوعة علم النفس والتحليل النفسي للدكتور عبد المنعم حفني،⁶ هذه المصطلحات كالتالي: الضغط Pressure ويعنى الظروف التي تحاول إجبار الفرد على التصرف بشكل يرضاه أو لا يرضاه، والضغط قد يكون صادرًا من داخل الفرد نفسه internal أو عن البيئة -أي خارجيًا external- أما Stress فتعنى الانعصاب (أو الانفعال)، وتعنى كلمة Strain إجهاد عضلة أو توتر نفسي طويل الأمد". وفي معجم علم النفس والتحليل النفسي الذي أشرف عليه د. فرج عبد القادر طه، فإن الضغوط النفسية تعنى Stress وهى أيضًا: "وجود عوامل خارجية ضاغطة على الفرد سواء بكليَّته أو على جزء منه. وبدرجة تُوجد لديه إحساسًا بالتوتر، وحينما تزداد حدتها يفقد الفرد قدرته على التوازن ويغير نمط سلوكه إلى نمط جديد ولها آثار على الجهاز البدني والنفسي للفرد". وعلى أي حال، فإن المهم في هذا التعريف أنه يعتبر

⁵ معجم اللغة العربية: معجم الفيزياء الحديثة، (القاهرة: الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية)، 1983.

⁶ الدكتور عبد المنعم حفني، موسوعة علم النفس والتحليل النفسي، (القاهرة: مكتبة مدبولي)، 1978.

أن الضغط النفسي حالة، ويوضح خصوصيته من المنظور النفسي بربطه بإدراك الفرد، فنقرأ: "والضغط النفسي حالة يعانيتها الفرد حين يواجه بمطلب مُلحٍّ فوق حدود استطاعته، أو حين يقع في موقف صراع حاد. ومصادر الضغوط في حياة الفرد متعددة، فقد ترجع لمتغيرات بيئية. كما قد يكون مصدرها الفرد نفسه، أو طريقة إدراكه للظروف من حوله".⁷

وتُصنّف الضغوط عادةً انطلاقاً من مصادرها أو طبيعتها أو من حيث تأثيراتها، فثمة ضغوط اقتصادية أو سياسية واجتماعية وبيئية... وغيرها، ولكن ثمة تصنيفات أخرى من حيث طبيعتها وتأثيراتها وقوتها. ومن المتخصصين من يصنفها إلى ثلاثة أنواع؛ فهناك الضغوط الناجمة عن أحداثٍ مفاجئةٍ خارجيةٍ، وعادة ما تكون صادمة، وهناك ما هو شخصي يتعلق بالفرد ذاته كالضغوط الناجمة عن المرض، وأخيراً الضغوط اليومية الروتينية الناجمة مثلاً عن الزحام والتلوث بكافة أشكاله. وكما تختلف عمليات الاستجابة لمختلف هذه المصادر، فإن بعضها يمكن أن يتم التعايش معها، وحتى هذا يمكن أن يتطور إلى حد فقدان القدرة على التكيف أو التعايش معه. وعموماً فإن الضغط، أو بالأحرى الإجهاد، هو محصلة للعلاقة بين المؤثر والاستجابة ولذلك فإن الضغوط هي عملية تفاعلية بين التأثير والاستجابة أو الفعل ورد الفعل.

وعليه فإن المعالجات التي اقترحت -سواء في مجال علم النفس أو المجال الاجتماعي والبيئي- تركز على ثلاثة محاور، إما العمل على المؤثر أو عامل الإجهاد ذاته، وهذا ما يُسمّى "التخفيف"، أو تحسين استجابة الطرف المتأثر وهو ما يعني القدرة على "التكيف أو التأقلم"، أو العمل على المحورين في الوقت ذاته.

ثالثاً: التكيف

تواصلًا مع ما سبق، يمكن القول إن ثمة تشابهاً بين ظواهر التكيف والكوارث والأزمات والضغوط، فالتكيف عملية بيولوجية عرفت الكائنات الحية قبل زمن طويل من استيطان البشر للأرض، وهو أيضاً ظاهرة اجتماعية ونفسية أساسية في الوجود البشري وتطوره. ففي العالم الطبيعي، تمتلك جميع الكائنات الحية، بما في ذلك البشر، قدراتٍ بيولوجيةً واجتماعيةً ونفسيةً للتكيف مع التغيرات والتطورات والظروف المعاكسة. وهذه التكيفات أساسية ومتواصلة من أجل البقاء. وبينما يؤكد علماء الأحياء أن التكيف ظاهرة حيوية شُكّلت جزءاً من تطور الكائنات الحية منذ فجر التاريخ، فقد حوّلت التطورات اللاحقة مفهوم التكيف إلى أداة واسعة الاستخدام في البحث والاستقصاء الفكري.

ولغويا فإن لكلمة "التكيف" أصولاً لاتينية تعني "التوافق مع شيء ما"، وأصول في اللغة العربية، ربما أقل اتصالاً بالمعنى الحالي للمفهوم كأن نعتبر أن التكيف مشتق من "الكيفية التي يكون عليها الشيء". إلا أن

⁷ الدكتور فرج عبد القادر طه وآخرون، معجم علم النفس والتحليل النفسي، (بيروت: دار النهضة العربية)، الطبعة الأولى.

المعنى الاصطلاحي للكلمة يعود إلى تطور العلوم الحيوية في بداية من القرن السادس عشر، قبل تبلورها أكثر فعليا في القرن التاسع عشر. ففي نظرية التطور، يُعرّف التكيف بأنه الآلية البيولوجية التي تتكيف بها الكائنات الحية مع البيئات الجديدة أو مع التغيرات في بيئتها الحالية. ومن العلماء الذين درسوا التكيف قبل تطوير نظرية التطور جورج لويس ليكلير كونت دي بوفون⁸. كان عالم رياضيات فرنسيًا يعتقد أن الكائنات الحية تتغير بمرور الوقت من خلال التكيف مع بيئات مواقعها الجغرافية. واقترح مفكر فرنسي آخر، جان باتيست لامارك، أن الحيوانات يمكن أن تتكيف، وتنقل تكيفاتها إلى ذريتها، وبالتالي تتطور. وبينما كان مفهوم التكيف موضوع نقاش بين العلماء قبل القرن التاسع عشر، فقد صاغ تشارلز داروين وألفريد راسل والاس⁹ لاحقًا في القرن التاسع عشر نظرية الانتخاب الطبيعي. اعتقد والاس أن تطور الكائنات الحية مرتبط بطريقة ما بتكيف الكائنات الحية مع الظروف البيئية المتغيرة. وفي تطوير نظرية التطور عن طريق الانتخاب الطبيعي، تجاوز كل من والاس وداروين التكيف البسيط من خلال شرح كيفية تكيف الكائنات الحية وتطورها. فكرة الانتخاب الطبيعي هي أن الصفات التي يمكن توريثها تُمكن الكائنات الحية من التكيف مع البيئة بشكل أفضل من غيرها من الكائنات الحية من نفس النوع. وهذا يُمكن من بقاء وتكاثر أفضل مقارنةً بأفراد النوع الآخر، مما يؤدي إلى التطور⁸.

ولم يظل مفهوم التكيف أسير المجال البيولوجي الحيوي، كما لم يعد التكيف أو سوء التكيف مجرد ظواهر طبيعية نستكشفها، بل سمات وخصائص يمكن اكتسابها أو تجنبها، فالتكيف الإيجابي يعني قدرات ومهارات ينبغي تعلمها، في حين أن التكيف السلبي يُعد نوعًا من القصور والانحراف يتحمل مسؤوليته الفرد أو المجتمع أو الدولة. ولم يعد مفهوم البيئة يعني فقط البيئة الطبيعية، بل تنوعت البيئات وتعددت ما بين بيئة اجتماعية وثقافية وسياسية ونفسية... وغيرها، وهي في مجملها تتطلب تكيفات ومواءمات. وفي مجال علم النفس، بعد أن أصبح الفرد عنصرًا مركزيًا في المجتمع الحديث، فإن قدرته على المواءمة والتكيف من أهم محددات جودة الحياة والسلامة النفسية، والتي هي ضرورية للسلامة الاجتماعية. ففي علم النفس، يُعرّف التكيف بأنه عملية ديناميكية مستمرة، يهدف بها الشخص إلى أن يغير سلوكه، لينشئ علاقة أكثر توافقًا بينه وبين البيئة... فالتكيف هو القدرة على تكوين العلاقات المرضية بين المرء وبيئته⁹ التكيف ليس مجرد استجابة ونتيجة، وإنما قدرات ومهارات تشكل الاستجابة وتحسن النتائج.

• جورج لويس ليكلير كونت دي بوفون (1707-1788م): عالم تاريخ طبيعي، ورياضيات، وكوزمولوجيا فرنسي

• جان بابتيست لامارك (1744-1829): عالم تاريخ طبيعي، وأكاديمي فرنسي

• ألفرد رسل والاس (1823-1913): عالم طبيعة وأحياء، مستكشف، جغرافي، وأنثروبولوجي بريطاني.

8 <https://education.nationalgeographic.org/resource/adaptation/>

9 دكتور مصطفى فهمي، التكيف النفسي، (القاهرة: مكتبة مصر)، 1978، ص 11.

وبالنظر إلى الخطابات العامة حول "التكيف"، ومنها الخطابات السياسية والتنموية، فربما يكون هناك درجة من الالتباس والغموض. فمن ناحية أولى، يتبين الخلط بين "التكيف" و"التأقلم"؛ لأن الحديث عن تمكين الناس من مواجهة الضغوط والمتغيرات النفسية والاجتماعية والبيئية لا يُعدُّ "تكيفاً" بالمعنى الحيوي، بقدر ما هو دعوة لتكوين استجاباتٍ واعيةٍ من أجل مواجهة هذه الظروف أو التأقلم معها. ومن ناحية أخرى، ثمة ما يمكن أن نطلق عليه "أيدولوجيا التكيف"، حيث يجري تقديم "التكيف" بوصفه الحل، إن لم يكن حلاً سحرياً، لمواجهة كوارث وأزمات وضغوط أغلبها من صنع البشر أنفسهم ومن أجل تحقيق مصالح اقتصادية أو سياسية. وبدلاً من علاج أسباب المشكلات، يجري الترويج "للتكيف" كحل للتعايش مع المشكلات التي تبدو كالتقَدَّر المحتوم، وبالتالي فإن المسؤولية تقع على عاتق المتضررين وليس صانعي المشكلات والأزمات والنزاعات والحروب. ولذلك يرى البعض أن استراتيجيات التكيف جاءت على حساب استراتيجيات "التخفيف" التي تركز على السبب بالأساس. وقد تحول مفهوم التكيف من دائرة الاستجابة الطبيعية التي سادت عبر التاريخ، إلى استراتيجية واعية للتعايش والبقاء.

رابعاً: المرونة

ظهر مصطلح المرونة بوصفه المفهوم الأكثر شمولاً؛ إذ يشير إلى مقارنةٍ تحتوي المؤثرات والاستجابات والنتائج المرجوة. وقد أصبح مصطلح "المرونة" اليوم حديث الساعة. فهو، كنظرية علمية أو مقارنة تنموية أو استراتيجية سياسية، يهدف إلى "إعداد" المجتمعات والمدن والمناطق، بل وحتى الدول بأكملها، لمواجهة تهديداتٍ مثل تغير المناخ والأزمات المالية والأوبئة. وباعتباره مصطلحاً جديداً في مجال التنمية، حلت المرونة تدريجياً محل مصطلح "الاستدامة" الذي طالما ساد عالم السياسة والأوساط الأكاديمية في العقود السابقة... وقد برزت المرونة، في الغالب، خارج نطاق الخطاب الأكاديمي منذ تسعينيات القرن الماضي من خلال العمل في سياسة المناخ... وفي أبسط صورته، يصف مفهوم "المرونة" القدرة على التعافي بسرعة من الصدمات والأزمات غير المتوقعة من خلال التكيف أو المقاومة.¹⁰

ومع ذلك تجدر الإشارة إلى أن المرونة كظاهرة اجتماعية وسلوكية، كانت دائماً موجودة، فقبل ظهور المصطلح، عرفت المجتمعات الكثير من الممارسات والسلوكيات التي يمكن أن نسميها الآن تقاليد المرونة. فطالما كانت هناك تحديات ومخاطر، فإن تطوير أساليب للتعامل معها يعد شكلاً من أشكال المرونة. ونجد ذلك في عادات الغذاء لدى الفقراء على سبيل المثال لمواجهة الشح ونُدرة الغذاء، وكذلك في قدرة الكثير من

¹⁰ Eitel, Kathrin. 2023. "Resilience". In *The Open Encyclopedia of Anthropology*, edited by Felix Stein. Online: <http://doi.org/10.29164/23resilience>

المجتمعات على تطوير أنظمة للري موفرة للمياه في المناطق التي تعاني من شح المياه، وثمة أمثلة عديدة أخرى.

أما فيما يتعلق بنشأة مفهوم المرونة ليعبر عن ظواهر بعينها، فشأنه في ذلك شأن المفاهيم السابقة (الضغوط والتكيف)، حيث ظهر بدايةً خارج نطاق المجال السياسي والاجتماعي والنفسي، فهو وليد علوم الفيزياء. وكما تشير دراسة عن أصل المفهوم، فقد عرفت اللغة الإنجليزية في أوائل القرن السابع عشر من الفعل اللاتيني *resilire*، ويعني الارتداد أو العودة للحالة الأولى. ولم يُعثر على أي دليل على استخدام المرونة في أي عمل أكاديمي حتى قدّم مطلع القرن التاسع عشر عندما استُخدم المصطلح لوصف خاصية من خصائص الخشب، ولشرح سبب قدرة بعض أنواع الخشب على تحمل الأحمال المفاجئة والشديدة دون أن ينكسر. وبعد أربعة عقود، تطور المفهوم كوسيلة لقياس ومقارنة قوة المواد المستخدمة في بناء السفن الحربية التابعة للبحرية الملكية البريطانية.¹¹

وفي القرن التاسع عشر دخل مفهوم المرونة ساحة علم النفس والدراسات الفسيولوجية ليمر بعدة محطات لمعالجة موضوعات بات يُنظر إليها على أنها متطلبات السلامة والمتانة النفسية ومنها آليات الدفاع اللاواعية، واستراتيجيات التأقلم الواعية، وعوامل الحماية وعوامل الخطر. أما بالنسبة للبحوث الفسيولوجية، فقد دُرست المرونة في سياق التوازن الداخلي وفيزياء الكم في عشرينيات القرن العشرين، والإجهاد العاطفي والأمراض في خمسينياته، ومرونة الدماغ في سبعينياته، وعلم المناعة العصبية النفسية منذ ثمانينياته. ولم تبدأ الجوانب الفسيولوجية والنفسية للمرونة بالترابط إلا منذ تسعينيات القرن العشرين.¹²

ومنذ تسعينيات القرن العشرين بدأ الحديث عن المتانة كنظرية، وخاصةً في مجال العمل الاجتماعي، فهي المدخل لتفسير ومعالجة عوامل الضعف والهشاشة النفسية والأسرية والاجتماعية. وفي الألفية الجديدة بدأت عمليات إدماج المفهوم في المجال البيئي والتموي، وظهر مصطلح التفكير المرن أو التفكير بالمرونة. فقد برز التفكير المرن المتعلق بالبيئة كمجال استقصائي يُمثّل منصةً للحوار والتعاون بين التخصصات. ويتعلق هذا التفكير بتنمية القدرة على استدامة التنمية في مواجهة التغيرات المتوقعة والمفاجئة، ومسارات التنمية المتنوعة، ونقاط الالتقاء المحتملة بينها. ويرتبط تطور هذا النمط من التفكير بالأنظمة الاجتماعية البيئية، حيث

¹¹ Alastair McAslan, *THE CONCEPT OF RESILIENCE* Understanding its Origins, Meaning and Utility, the Torrens Resilience Institute, Adelaide, Australia 14 March 2010

¹² Grygorenko, Z., & Naydonova, G. (2023). The concept of “resilience”: history of formation and approaches to definition. *Public Administration and Law Review*, (2), 76–88.

<https://doi.org/10.36690/2674-5216-2023-2-76-88>

يكون الترابط بين الإنسان والبيئة. وينصبّ التركيز على المرونة، باعتبارها استدامةً وقابليةً للتكيف وقابليةً للتحويل في الأنظمة الاجتماعية البيئية المعقدة، مما يُوضّح الطبيعة الديناميكية والاستشرافية لهذا المفهوم... وبالتالي، في التفكير المرن، يتم تأطير قضايا التنمية من أجل رفاهة الإنسان والناس والكوكب، في سياق فهم وإدارة الديناميكيات الاجتماعية والبيئية المعقدة من أجل الاستدامة كجزء من المحيط الحيوي الديناميكي.¹³ ومع ذلك، فإذا كان المعني الفيزيائي الأساسي للمرونة يعنى القدرة على العودة للحالة الأصلية بعد التعرض لحدث ضاغط وهو ما يسمى "التعافي"، فإن مفهوم التكيف لا يعطي المعنى ذاته، طالما أنه يعنى استجابة واعية قد تغير من طبيعة الكائن فلا يعود بالضرورة إلى الحالة الأولى، وإنما يكتسب من الخصائص ما يجعله قادرًا على البقاء. ومع ذلك فثمة تداخل في الخطاب العام عن المرونة والتكيف.

ختام

إن مجمل المفاهيم التي تم تناولها (الكوارث والأزمات، المؤثرات والضغوط، التكيف، المرونة) هي تعبير عن ظواهر طبيعية أو اجتماعية وإنسانية، ظواهر متأصلة في الحياة التي نعيشها. وفي حين أن الظواهر كانت دائما سابقة عن المفاهيم التي عبرت عنها، فإن القاسم المشترك بين هذه المفاهيم هو تشكلها في تخصصات علمية محددة في مطلع العصر الحديث، قبل انتقالها إلى الساحات الأكاديمية والعلمية والسياسية والتنمية تبعاً. ولعل مجال علم النفس كان له السبق في استدماج هذه المفاهيم وتطويرها. أما المجال الآخر الذي انتزع هذه المفاهيم من المجالات المتخصصة، فهو المجال البيئي وخاصة بعد تطوير مقاربة المرونة لتكون مقاربة شاملة تحتوي مفاهيم الكوارث والأزمات والهشاشة والتكيف. ونظرًا لأن استخدام هذه المفاهيم في المجالات التنموية مسألة حديثة، فثمة حاجة إلى تطويرها ولكن أيضًا النظر إليها من زوايا نقدية لبيان مدى فاعليتها وملاءمتها، وخاصة في ظل عالم أصبحت فيه الكوارث والأزمات صناعة بشرية، وأن الكثير منها يمكن نقاديه إذا توفرت الإرادة السياسية والحد من استنزاف البشر والأرض. إن الفشل ليس في عدم امتلاك القدرة على التكيف والمرونة في مواجهة ضغوط الأزمات والكوارث، ولكن في عدم توفر الإرادة لعقلنة آليات الحكومة، وفعل ما يلزم للقضاء أو الحد من مسببات الجوع والحروب وتدمير البيئة.